# الخصائص المعمارية والهندسية لمدينة (إرم)

لم تكن المنطقة كما هو حالها اليوم، فلا يجب أن يأخذك الخيال بأنهم كانوا يعيشون في منطقة صحراوية جدباء قاحلة، فقد كانت سهول المنطقة تكسوها المروج الخضراء والأنهار والعيون: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤].

وحيث إنها كما ذُكرت من المروج والأنهار، فقد اختاروا البناء على الأماكن المرتفعة؛ أي على قمم الكثبان، كما جاء ذكرها (ريع)، والريع تعني المكان المرتفع المشرف: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]. ليبنوا فوقها لإطلالتها، وليعطي فخامة وعظمة ورهبة معمارية للمباني، وهو مزيج جميل خلاب، قد جمع بين الخضرة والماء والبناء: ﴿ٱلَّتِى لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِى ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٨]. وعندما نذكر الأعمدة (العماد)، فيجب أن تذكر معها خصائص المنطقة التضاريسية وكيفية التعامل معها إنشائيًّا، فلذلك رفعوا صروح البناء بأعمدة ضخمة، لتعلو وتصبح كأنها طائرة فوق مستوى الرمال، لتعطي فرصة لحركة الرمال من تحتها، دون أن تتأثر أو تغطيها بحركتها الدائمة، وكذلك لتوحي بالقوة والمنعة، حيث إن عادة البناء تكون مباشرة ملامسة للأرض.

وقد تميزت مدينة (إرم) عن جميع الأنماط والأساليب المعمارية والهندسية تميزًا في الأسلوب والطراز والنمط والتصميم، وقد ذكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خصائص عمارتهم بأنها آية: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ﴾ [الشعراء: ١٢٨]. والآية تعني العلامة والأمارة والتميز، ولا يمكن التنبؤ بمعرفة ماذا كانت وكيف كانت؛ لأنها: ﴿ٱلَّتِى لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِى ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٨].

وقد أشار الله عَزَّوَجَلَّ بأن إرم ليس لها شبيه في العمارة: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾، وهي عمارة مميزة، حيث إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر بناءهم بـ (المصانع)، ولم يقل: إنها بيوت أو قصور، فهي تسمية منفردة، خاصة بمدينة إرم لقوم عاد، فهذا يأخذنا، والله أعلم إلى أن:

- المصانع: بناء أضخم من القصور من حيث الشكل والمضمون والمادة: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

وبهذا، فقد جمع الله لهم بين الجمال المعماري في (آية)، والمتانة الإنشائية في (مصانع)، وهو تميز فريد لقوم عاد في العمارة والهندسة.

وقد ورد في بعض التفاسير والشُّروح والمعاني أن (العماد) يقصد بها البيوت والقصور والبروج والحصون العالية الشاهقة القائمة كالأعمدة.

وقد ذكرها بعض المفسرين بأنها بيوت الشعر التي تُرفع بالأعمدة الشداد.

وأنا هنا أختلف مع ما ذُكر من ذلك بالدليل من القرآن، حيث إن الله قد ذكر:

- البروج: (بالبروج): ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].
- الحصون: (بالحصون): ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

- القصـور: (بالقصور): ﴿تَنَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: ٧٤].
- البيـوت: (بالبيـوت): ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

فقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوم ثمود في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

وبالتمعن في آثار قوم ثمود بمدائن صالح بالحجر، مع ما ورد بالآية الكريمة أعلاه، لوجدنا أن لديهم عمارتين هندسيتين:

القصور والبيوت، وهما كتلتان من العمارة المختلفة في الحجم والشكل باستخدام المواد نفسها والنمط نفسه.

- أولًا – القصور: كتل من الصخر الضخم المنفرد المتفرق في سهل وادي الحجر، قد نحتت للطبقة العليا من القوم، وهي ما أشارت إليه الآية: ﴿تَنَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: ٧٤]. وبهذا تكون تلك الكتل في مدائن صالح قصورًا.

وهي ليست كما ذكرت بعض الشُّروح أنهم ينتقلون في فصل الصيف من المدن إلى قصور المزارع بالسهول، وهذا تفسير ضعيف يحاكي خيال بيئة حياة منطقة المفسر في زمنه.

• ثانيًا - البيوت: مساكن صغيرة وأحافير نحتت في الجبال بوصفها مجمعات سكنية، ربما كانت تخص طبقات مختلفة من القوم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾.

وأما ما ذكر من أنهم نحتوا هذه الجبال والصخور بغرض أن تكون قبورًا لهم، فهذا ليس صحيحًا؛ فالآيات واضحات جليات.

- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]. فالقصور والبيوت تكون للسكن.
- وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]. والفراهة من رغد العيش.
- وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]. والأمن لطول البقاء والسعادة في الحياة، فلم يذكر الله في كتابه العزيز أن ما بنوه كان بناء بقصد المقابر لهم، ولكنهم في عذابهم بالصيحة والرجفة أهلكوا فيها، فأصبحوا جاثمين فيها حيث قال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧-٦٨].

• ديارهم: بيوت سكنهم: ﴿لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾: لم يقطنوا، ويعيشوا بها، وهذه دلالة على أنها مبانٍ للعيش.

ومما يلفت النظر أن النقوش الخارجية على واجهات البيوت بالحجر مشابهة كثيرًا وبنفس النمط والطراز المعماري للنقوش الموجودة بالبتراء بمحافظة معان بالأردن، وهذا يأخذنا إلى أن هذه النقوش قد تكون نبطية وليست ثمودية لفارق المدة الزمنية بينهما وهذا ما يتضح من التشابه على سبيل المثال في الزهرة وتاج العمود والمثلث الإغريقي وهذا لا يمنع أن تكون هذه البيوت لقوم ثمود أُضيفت إليها الزخرفة النبطية لاحقًا بعد استيطان الأنباط في المنطقة لتشابه الطبيعة البنائية في منطقة الحجر لمنطقة البتراء.

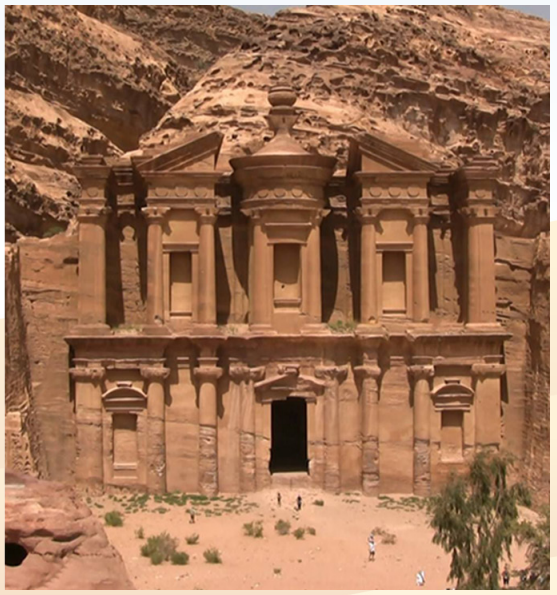

وأما ما يتبين من أحافير بداخل البيوت على أنها قبور، فبالتمعن فيها نجد تلك الأحافير مختلفة الأحجام والأوضاع ومتكررة كذلك في مغاير قوم شعيب، فتوحي بأنها مخازن لحفظ الأطعمة والمواد والأدوات، وأما القبور الموجودة بها فالمنطقة تتالت عليها أقوام وحضارات بعدهم مثل اللحيانيين والأنباط، فقد تكون تلك القبور لتلك الحضارات، ولا تعود لقوم ثمود.

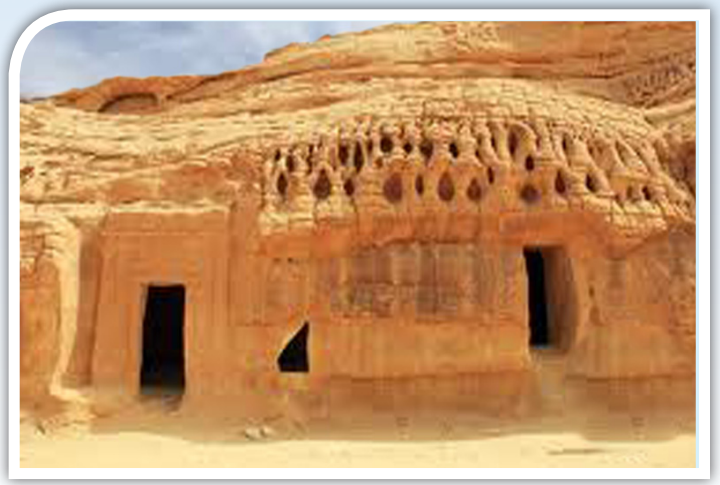

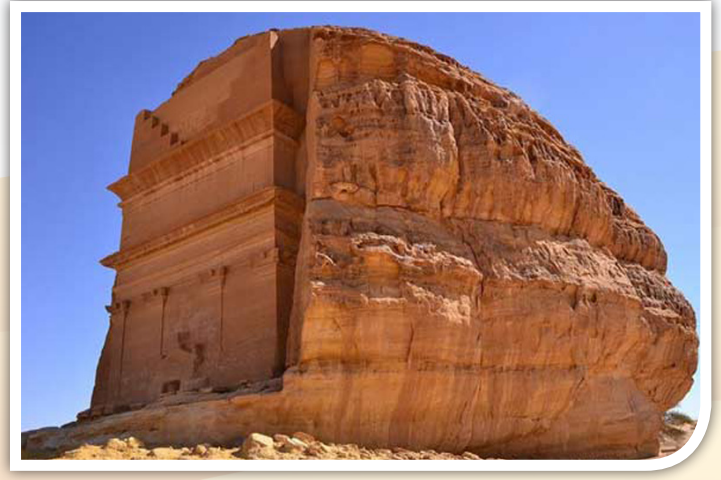

# سهل وادي الحجر - مدائن صالح

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

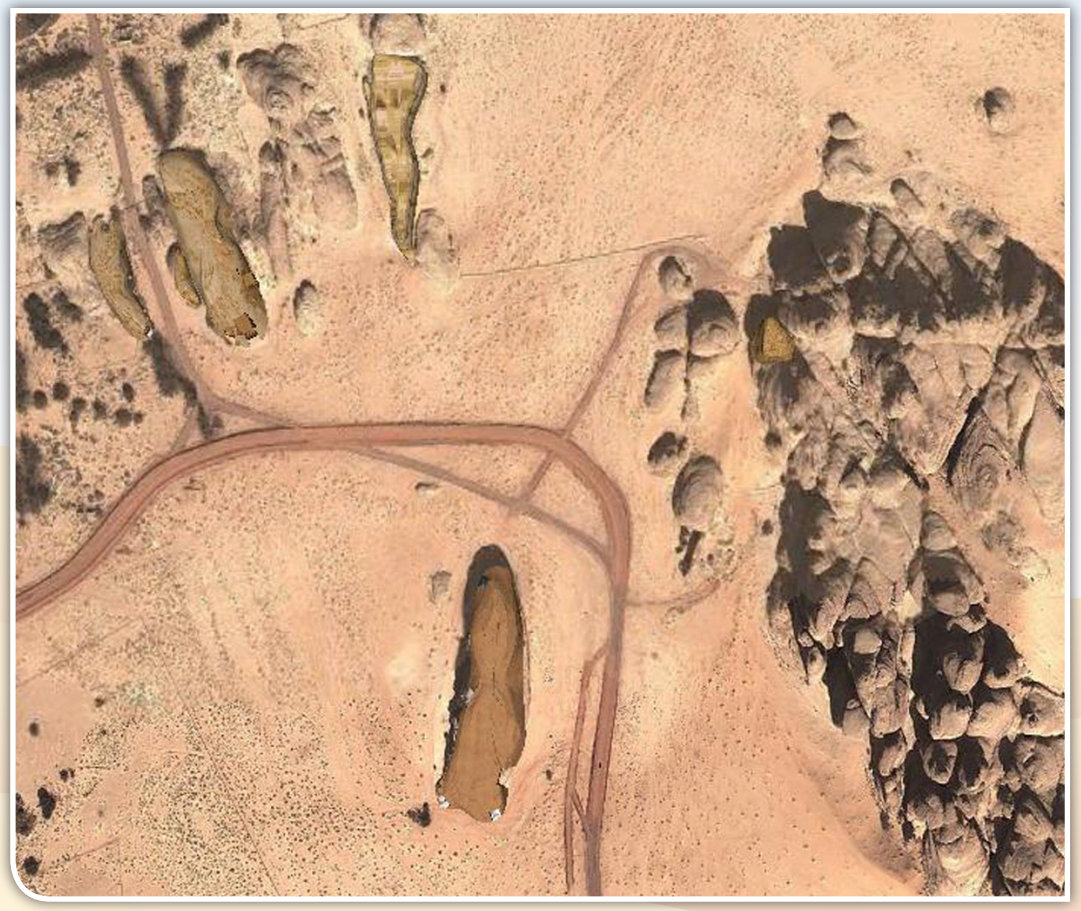

وعندما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (تخلدون) لقوم عاد ظلوا طامعين، ومعتقدين بالخلود على قيد الحياة، وقد ساعد على هذا الاعتقاد قوتهم وضخامة خلقتهم وطول أعمارهم في ذلك العصر، فنسوا أنهم ميتون ومبعوثون، فعملوا على تضخيم المباني، والزيادة في البناء والإبداع والاستكبار والطغيان، وهذا يقودنا إلى أن ما بنوه كان للخلود والمتعة، والخلود يقود للبناء الشامخ الفاره، والفراهة يشار إليها بعظمة العمارة، وحيث إن العمارة هي مؤشر الفراهة في المجتمعات الغنية فقد ارتبطت مصانع بـ (تخلدون)؛ لتكون كناية عن عظمة المباني الفارهة الراسخة للبقاء على قيد الحياة، فتكون مصانع الخلود هي مباني الحياة الدائمة.

وأما ما يخص ما ذكر عن بيوت الشعر، فالخلود لا يمكن أن يكون بالخيام وبيوت الشعر؛ لضعف مقاومة موادها لظروف المنطقة المناخية والتضاريسية، فهي مصنوعة من وبر الإبل وأصواف المواشي وجلود الحيوانات في ذلك الحين، وقوم عاد لم يكونوا بدوًا رحلًا، فهي تتنافى مع الآية في قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] فأين وجه الشبه بين بيوت الشعر ومصانع؟

فـ (مصانع و تخلدون) تؤكد الإقامة الدائمة، والإقامة الدائمة تكون بالبناء، وليس ببيوت الشعر، وهذا ما وددت توضيحه أن الخيال لا يمكن أن يكون حاضرًا مع الآية: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٨].

وعلى هذا السياق، فقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأعمدة الهندسية في القرآن الكريم صراحة بما هو معروف بوظيفتها الهندسية المعمارية والإنشائية.

- فقال (العماد): ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧].
- وقال (عمد): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].
- العَمَد: هي الدعائم التي تقوم بدعم ورفع البناء أو الشيء، وتعمل على إعطائه القوة والمتانة والتماسك والجمالية.

وعمد جمع يدل على الكثرة، كرسل ومفردها: رسول.

ولذا، فهي تنطق أعمدة وعِماد وعمد، ومفردها: عَمود.

فالعمود يُعدَّ عنصرًا إنشائيًّا متخذًا شكلًا قائمًا ارتكازيًّا عموديًا دائريًا، أو ذا أضلاع، وظيفته نقل الأحمال مما فوق العمود إلى ما أسفله، ثم إلى القاعدة، ومن وظائفه أنه:

- عنصر داعم لمختلف العناصر الإنشائية.
- عنصر مقاوم للعوامل الطبيعية، كالزلازل والرياح.
- عنصر جمالي.

## وعلى هذا تأتي الآية في مفهومين هندسيين:

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٧-٨].

- المفهوم الأول: أن المدينة (إِرَمَ) ذات الأعمدة لم يخلق ولم يُبنَ مثلها من قبل، فالضمير في: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ يعود إلى المدينة (إِرَمَ)، التي تميزت بالأعمدة، فتكون هي (إرم) التي لم يخلق مثلها.
- المفهوم الثاني: أن الأعمدة (العِمَاد) لم يسبق أن استخدمت في التشييد والعمارة من قبل، فالضمير في: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾ يعود إلى (العِمَاد) التي لم يسبق استخدامها إنشائيًّا في البناء قبل ذلك.

فتكون هي: (العماد) التي لم يخلق مثلها.

فإذا أخذنا بالمفهوم الثاني، فإنه يقود إلى أن قوم عاد هم أول من ابتكر نظام الأعمدة واستخدمه في البناء والهندسة الإنشائية في تشييد المباني وعمارتها، حيث كان البناء في ذلك الوقت يعتمد على البساطة في البناء التقليدي والنحت والتكهيف، ولهذا ذكرها الله بذات العماد عن سائر المدن. والله أعلم.